

الباب الثالث

موقف الجمعيات القومية تجاه الدعوات الإصلاحية المحاصرة لها

الفصل الأول: موقفها من الدولة العثمانية والدعوة إلى الجامعة الإسلامية

المبحث الأول: موقف الجمعيات القومية من الدولة العثمانية

المبحث الثاني: موقف الجمعيات القومية من الجامعة الإسلامية

الفصل الثاني: موقفها من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

أولاً: وصف الدعوة الإصلاحية وأتباعها بأنها مذهب محدث في
الإسلام

ثانياً: نقد منهج الدعوة بإزالة الشركيات من واقع المسلمين

ثالثاً: اعتبار الدعوة (الوهابية) حركة سياسية ذات مطمح مادي

obbeikandi.com

الفصل الأول

موقفها من الدولة العثمانية والدعوة إلى الجامعة الإسلامية:

المبحث الأول: الدولة العثمانية

تعتبر الدولة العثمانية مرحلة تاريخية من مراحل هذه الأمة التي يربط أفرادها كتاب الله وسنة رسوله، وقد امتد تاريخها وتصدرها للعالم الإسلامي مدة تزيد على خمسة قرون.

ولم تتعرض دولة ساست العالم الإسلامي للنقد والنهب العسكري والفكري، كما تعرضت له الدولة العثمانية، وفي فترة من سنيها نبتت فيها نابتة السوء، فظهرت الانحرافات العقائدية، وشرعت قوانين تناقض كتاب الله وسنة رسوله، مما جعل أصل الالتقاء يتغير ويتبدل بين أفرادها، فأصبح كل قوم يدعو إلى قومته، فكتب الله عليها السنة الإلهية التي لا تتغير، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١).

(١) سورة الأعراف-رقم الآية(٩٦).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ زَوْيَ لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيَتْ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةِ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا" (١).

وليس المقصود من إيراد الحديث الدولة العثمانية بذاتها وتقويمها، وإنما الذي أريد بيانه هو موقف القوميين العرب من الدولة العثمانية، ومما ينبغي أن يذكر أن الجمعيات القومية العربية حينما وقفت من الدولة العثمانية مواقف مضادة، ليس لذات الدولة وإنما كانت مواقفها موجهة لذات مقام الخلافة، إذ اعتبرت الجمعيات القومية العودة إلى الخلافة الشرعية تحلفاً طبقياً، ومناقضاً للمبادئ العصرية في السياسة والحكم.

وقد ذكر هذا الأمر شيخ الإسلام في عصره مصطفى صبري، حينما بين موقف الأحزاب العلمانية من الخلافة بقوله: "والمقصود إلغاؤها مع الملغين في تركيا والمؤيدين لأفعالهم من خارج تركيا، هي الخلافة عن رسول الله ﷺ في تنفيذ ما أتى به من شرعة الإسلام" (٢).

(١) صحيح مسلم- كتاب الفتن- باب هَلَاكِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ- رقم الحديث (٥١٤٤).

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين- مصطفى صبري- ٤/٣٦٣.

لقد اتخذت الجمعيات القومية نقد الدولة العثمانية ستاراً لنقد الخلافة الإسلامية، وقد بينت مناشير ونظم الجمعيات القومية هذا الأمر، كما في نظام جمعية الشورى العثمانية أن من أهداف الجمعية: "محاولة تغيير شكل الحكومة إلى النظام النيابي"^(١).

باستعراض تاريخ تأسيس الجمعيات القومية العربية، والنظر في مبادئها ونظمها القومية يظهر أن مواقفها قد مرت بمراحل مختلفة بحسب الظروف والمناسبات التي يُمَرُّ بها تأسيس الجمعيات القومية العربية، قال محمد عزة دروزة: "لم يشذ سير الفكرة عن ناموس النشوء والتدرج العام حسب الظروف والعوامل المتنوعة"^(٢) وإن كانت تتفق جميعها في التخلص والقضاء على مبدأ ومشروعية الخلافة الإسلامية.

وعن إحدى مراحل تأسيس الجمعيات يقول سليمان البستاني - وهو من المؤسسين للجمعيات القومية -: "تآلفنا عصابة لم يكن فيها أثر لفارق بين مسلم ومسيحي وسننا قانوناً فجعلنا أول مواده منع التعرض للبحث في الدين والسياسة، وفرضنا على جميع الإخوان إلقاء الخطب والمباحث المفيدة"^(٣).

ولم تبق منهجية الجمعيات القومية على هذا المبدأ، يبين ذلك محمد جميل بيهم بقوله: "كان العالم يتحدث عن المبادئ القومية، ويتندر بالديمقراطية، ولا سيما بما قرره الثورة الفرنسية من حقوق الأفراد والشعوب، وفي تلك اليقظة

(١) حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي - محمد منسي - ٩٧.

(٢) حول الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة - ٢٣/١.

(٣) الدولة العثمانية قبل الدستور - سليمان البستاني - ٥٥.

التحررية التي شملت أوروبا خاصة أخذ العرب يتساءلون لماذا لا نتمتع بوحدة سياسية تعيد إلينا عزتنا الأولى؟ وكان في طليعة هؤلاء المتسائلين نخبة من رعايا السلطنة العثمانية، ولا سيما في سوريا، الذين تطلعوا إلى استقلالهم أسوة بالشعوب الأخرى غير التركية التي خرجت على الدولة".

ويبين محمد بيهم — أيضاً —: "أن في بداية الأمر كان العرب لا يجرؤون على الجاهرة بهذه الأمانى القومية، لأن الأوساط العربية لم تكن مستعدة للتجاوب معهم في الخروج على دولة الخلافة. ولذلك فإنهم شرعوا يعربون عن مشاعرهم هذه ضمن نطاق الدعوة إلى العلم وإلى النهضة المؤدية إلى استرداد عزة العرب وكرامتهم"^(١).

وكان من آثار الانقلاب على السلطان العثماني، أن ظهر في المجتمع مبدأ السند العلني والمطالبة بالحقوق بمنهج القوة^(٢). وفي أثناء إعلان الدستور وتولي جمعية الاتحاد والترقي سياسة الدولة، أصبحت الأوساط العربية مؤهلة لاستقبال مبادئ الجمعيات.

وقال بيهم: "تكتل الشباب في العاصمة وسواها ورفعوا أصواتهم في نطاق المطالبة بحقوقهم القومية، واستهلت عملها بالمطالبة باللامركزية، وانتقل هذا الطلب إلى مرحلة أخرى وهي المطالبة بالاستقلال التام والتطلع إلى وحدة البلاد العربية"^(٣).

(١) الوحدة العربية - محمد جميل بيهم - ١٠-١١ (بتصرف يسير).

(٢) انظر: YoI AYRIMINDA TURK- ARAP ILISKILERI.

(٣) الوحدة العربية - محمد جميل بيهم - ١٠-١١ (بتصرف يسير).

ويمكن حصر مراحل وتطور مواقف الجمعيات بما يلي^(١):

المرحلة الأولى: موقف الجمعيات من الدولة خلال حكم السلطان

عبد الحميد.

المرحلة الثانية: موقف الجمعيات من الدولة بعد إعلان الدستور .

لقد وقفت الجمعيات القومية العربية من الدولة العثمانية والدعوة إلى الجامعة الإسلامية مواقف محددة، ففي فترة زمنية من عهد السلطان عبد الحميد لم يكن هناك تقسيم بين أفراد الدولة العثمانية، كانت تجمعهم كلمة واحدة وهي (مسلمون) ومخالفوهم (كافرون) فقد كانوا يعتبرون أن الدولة دولتهم فهي دولة الإسلام، وأن السلطان المسلم هو الوارث الفعلي لرئاستهم الدينية، وحامي حمى الإسلام، ورافع لواء الجهاد ضد الكفر والكفار، حتى إن تسمية (عرب) لم تكن تطلق عليهم في الوثائق والكتب والمعاملات، بل كانت تسميتهم الشائعة هي كلمة (مسلمون) هم والترك على حد سواء في عصر كان الدين هو الفارق المميز بين الأجناس والقوميات^(٢) .

وقد سطر المستشرقون أثناء زيارتهم للقسطنطينية سنة ١٨٥٦م (١٢٨١هـ)، ضمن ملحوظاتهم على الناس: أن كلمة (تركلك) — ترك — تفهم وتعد من مترادفات الفضاظة والشكاسة والهمجية، وحينما يقدم المستشرقون

(١) قد يظهر لبعض أعضاء الجمعيات القومية مواقف تخالف الترتيب الزمني الذي ذكرته، وهذا لا ينقض المبدأ العام ويكون موقفه لأغراض خاصة. وإنما الترتيب الذي ذكرته هو عبارة عن رصد توجه عام عن سيرة الجمعيات القومية لا ينقضه تصرفات الأفراد.

(٢) العرب والترك - توفيق برو - ٢٦ - طلاس - دمشق - الطبعة الأولى - ١٩٩١ .

على تنبيه الناس إلى الخطورة العظمى التي يجب اعتبارها في شأن متحدر الجنس التركي، كانت إجابات الناس: (ولكن بالله عليك لا تجعلنا في مصاف "الكبير غيز" وجفاه التتر). وقال المستشرقون كدنا لا نرى إلا أقل من القليل من الترك في القسطنطينية من يذهب مذهب الجد والاهتمام في شأن الجنسية التركية أو اللغة التركية^(١).

وكان ولاؤهم للحاكم الذي أضيفت عليه ألقاب إسلامية فهو (نائب الله على الأرض) و (إمام المسلمين) و(ظل الله) و(خادم الحرمين الشريفين) و (حامي الشريف وحاكمها)^(٢).

كان هذا هو الموقف لدى أعضاء الجمعيات القومية العربية عن الدولة العثمانية^(٣)، إلا أن هذه المبادئ قد تغيرت وظهرت مواقف تتناسب مع التطور الفكري والمنهجي للجمعيات القومية العربية. ومع الظروف التي مرت بها الدولة العثمانية من التفاف الأوربيين النصارى عليها، وقد أغراهم الوضع الخطير الذي تعانيه الدولة العثمانية، فالتحلل الداخلي، والضعف العسكري أهلك قواها^(٤).

ويخبر محمد عزة دروزة عن الظروف التي مرت بالجمعيات القومية العربية بها والتوسع في تأسيسها، فيقول: "ساعد على ظهور هذه الحركات ظرف مهم، وهو حرب البلقان ١٩١٢-١٩١٣م وخروج زمام الحكم من يد الاتحاديين

(١) حاضر العالم الإسلامي-لوثرروب- ١١١/٤.

(٢) نشوء القومية العربية - زين نور الدين زين - ٢٦.

(٣) انظر: نشأة الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة - ١٧٨.

(٤) العثمانيون والبلقان-علي حسون-١٧٧-المكتب الإسلامي-الطبعة الثانية-١٤٠٦هـ.

— جمعية الاتحاد والترقي — وقيام وزارة محافظة ائتلافية أي منسوبة إلى حزب الائتلاف المعارض لحزب الاتحاد والترقي، أو بالأحرى منسقة معه، حيث اغتتم سياسة العرب ومنوروهم الفرصة فقاموا بنشاطهم وحركاتهم^(١).

ويمكن حصر مواقف الجمعيات القومية بالأمر التالية :

أولاً: اعتبار الدولة العثمانية مستعمرة للبلاد العرب:

لقد اعتبرت الجمعيات القومية العربية أن الدولة العثمانية مستعمرة للبلاد العربية قال أسعد داغر — نصراني من أعضاء الجمعيات القومية —: (.. إن العرب الباقين تحت سيطرتهم كانوا ينظرون إليهم نظراً إلى أعداء مخربين قساة ظالمين .. فقد ساد بلادهم الجهل والفقير والظلم وأهدرت كراماتهم وانتهكت حرماهم وديست حرياتهم وأذلت أعناقهم وأفسدت لغتهم وبارت أرضهم وأصبحوا هدفاً لكل قوي مستعمر ومطمعاً لكل طامع جشع ، ومن أجل ذلك كان العرب .. مجمعين على كره الترك ومحاولة التخلص منهم)^(٢).

فأصبحت الدولة كما قال محمد عزة دروزة: "ظالمة غاشمة، وامتلاء قلوب الناس بالرعب والعدوان على أموالهم وحرياتهم، والسلطان سار في الأسلوب الاستبدادي الذي لا رقابة للشعب عليه"^(٣).

(١) حول الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة - ٣٧/١.

(٢) مذكراتي على هامش القومية العربية - أسعد داغر - ٤٧.

(٣) نشأة الحكومة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة- ١٧٧.

وتأصيلاً لهذا الموقف أخرج عبدالرحمن الكواكي كتابه (طبائع الاستبداد) الذي ذكر فيه: آثار الاستبداد على الدين والدولة والتربية ... الخ.

ومما جاء في الكتاب: (الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها ، من المستبد الأعظم إلى الشرطي إلى الفراش إلى كناس الشوارع، ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً .. إن العقل والتاريخ والعيان، كل يشهد بأن الوزير الأعظم للمستبد هو اللئيم الأعظم في الأمة، ثم من دونه من الوزراء يكون دونه لؤماً^(١)).

وكتابه الآخر (أم القرى) والذي طالب فيه بخلافة عربية، بل يجب إقامة خلافة عربية مقام الخلافة العثمانية، وألقى بذور الشك في صحة اعتبار السلاطين العثمانيين خلفاء المسلمين.^(٢)

ويعتبر أعضاء الجمعيات أن ما جاء في كتابي طبائع الاستبداد وأم القرى، يعد لمحة صغيرة مما أملته عليه بيئته، وسجلّ ينطق بأخبار الظلمة وقبح أثرهم، فلا عجب أن دعا الكواكي على رزانة فيه، إلى نزع أيدي العرب من سلطان الترك^(٣).

إن الظالم المستبد الموصوف في كتاب طبائع الاستبداد، يراد به السلطان عبدالحميد، ولذا طالب الكواكي بكثير مما كتب عن الدعوة إلى الحرية بفصل

(١) طبائع الاستبداد - عبدالرحمن الكواكي - ٦٠-٦٤.

(٢) الاتجاهات الفكرية عند العرب - علي المحافظة - ١٣٣. وانظر : أم القرى - الكواكي - ٢٣٤-٢٣٥.

(٣) المعاصرون - محمد كرد علي - ٢٨٢.

السلطة الدينية عن السلطة المدنية، لأن السلطان عبد الحميد قد استخدم سلطته الدينية بوصفه خليفة للمسلمين، وكان العرب يطالبون بأن تكون الخلافة على شئون المسلمين للعرب^(١).

وتقريباً لمبدأ الجمعيات في وصف الدولة العثمانية بأنها مستعمرة للبلاد العربية، نصت دساتير الجمعيات على المطالبة بالتححر ونيل الاستقلال^(٢)، ويعتبرون سيادة الترك العثمانيين، في البلاد العربية كانت طويلة الأمد أكثر من كل سيادة أجنبية أخرى، فقد استعمروا البلاد العربية سياسياً^(٣).

وكانت من أبرز الجمعيات التي تولت إعلان هذا المبدأ "حزب اللامركزية" الذي كان له الأثر في تحقيق هذه الغاية، وكذلك "المنتدى الأدبي" الذي قال عنه أسعد داغر: "أقوى عامل في بث الفكرة الوطنية في نفوس العرب. وبث الدعوة إلى الانفصال عن الترك وإعلان الاستقلال العربي"^(٤).

وفي كتاب "ثورة العرب" بيان عن مقصد الجمعيات القومية العربية، فمما جاء فيه: رأى العرب بعد ما دهمتهم المصائب وتوالت عليهم النكبات أنهم وصلوا إلى حال من الخطر لم يسبق لها مثيل في إحراج الأزمات، فعملوا بهمة لا

(١) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر-محمد محمد حسين-٢٨٠/١.

(٢) انظر:

١. البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٧.

٢. التاريخ العربي الحديث-أحمد رجب عبدالمجيد ورفيق شاكر-١٥٢.

(٣) قضية العرب-علي ناصر الدين-٥٥.

(٤) مذكراتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-٣٦.

تعرف الكلل على درء ذلك الخطر العظيم، فقرروا أن يلتفوا كلهم؛ جمعياتهم، وأحزابهم وكل من نجا منهم من مذابح الاتحاديين حول زعيم كبير من زعمائهم البعيدين عن سيطرة الترك والأجانب وأن ينظموا تحت إمرته قوة عربية كافية للوقوف في وجه الاتحاديين وإنقاذ الأمة العربية من مخالبهم^(١).

ثانياً: القضاء على الخلافة الإسلامية:

كان للجمعيات القومية العربية أهداف تجاه الدولة العثمانية أبرزها القضاء على مقام الخلافة الإسلامية، حيث طالبت الجمعيات بالحكم الدستوري، والسير وفق نظم ومبادئ الدول الكافرة، — مشتركة في ذلك مع أعضاء جمعية الاتحاد والترقي — وهذا يعني إلغاء الخلافة الإسلامية، كما بين هذا الأمر الشيخ مصطفى صبري بقوله: "إن نقل السلطة من يد الخليفة إلى أيادي المجلس كان خطوة للوصول إلى الهدف وهو إلغاء الخلافة وإبطالها على التدرج"^(٢).

والسعي لتطبيق الدستور العلماني يعني إلغاء الشريعة والذي يقوم الخليفة بتطبيقها على الناس، لأن الإمامة رياسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة، في مهمات الدين والدنيا، مهمتها حفظ الحوزة، ورعاية الرعية، وإقامة الدعوة بالحجة والسيف، وكف الخوف والحيف، والانتصاف للمظلومين من الظالمين، واستيفاء الحقوق من الممتنعين، وإيفائها على المستحقين^(٣).

(١) ثورة العرب - أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية - ١٨٧. وانظر:

● تحية تقدير للأستاذ شار روبر آجرون - إعداد/عبدالجليل التميمي - ٢٠٤ - منشورات التميمي للبحث العلمي والمعلومات - ١٩٩٦.

(٢) النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة - مصطفى صبري - ٩.

(٣) الغياثي غياث الأمم في التياث الظلم - الجويني - ٢٢ - مطبعة نهضة مصر.

ولما كان هذا الدستور نظاماً ديمقراطياً، أي أحكام كفر، وهو كنظام ديمقراطي يناقض الإسلام، وهذه الأحكام نفسها تناقض الإسلام، وإذا طبقت فإن تطبيقها يعني إلغاء نظام الخلافة، وإقامة دولة كأي دولة أوروبية^(١).

وذكر (لورانس) الخطة الصليبية في القضاء على الخلافة الإسلامية، وهي كما يقول: "علينا أن ندفع بالعرب لانتزاع حقوقهم من تركيا بطريق العنف، لأننا بهذا نقضي على خطر الإسلام وندفع به (أي بالإسلام) لإعلان الحرب على نفسه، وبذلك نمزقه من القلب. إذ ينهض في مثل هذا الصراع خليفة في تركيا وخليفة في العالم العربي ويخوض الخليفتان حرباً دينية وبذلك يقضي على خطر الخلافة الإسلامية بصورة نهائية"^(٢). وبهذا التدبير الماكر باركت الدول الصليبية ثورة الشريف حسين بن علي وتنصيبه نفسه خليفة للمسلمين"^(٣).

ومن أجل تبرير القضاء على مقام (الخلافة الشرعية) سطر أعضاء الجمعيات القومية العربية بعض المبادئ والمفاهيم حول الخلافة العثمانية،

(١) كيف هدمت الخلافة-عبدالقدوم زلوم-٤١-١٣٨٢هـ.

(٢) لورانس العرب على خطى هرتزل-٧٤-تقارير لورانس السرية-زهدي الفاتح-دار النفائس-بيروت.

(٣) قدمت إيطاليا مقترحاتها للحلفاء في الحرب العالمية الأولى لقاء دخولها الحرب معهم ضد ألمانيا وتركيا، ومما جاء في هذه المقترحات: أ-إن الحكومة الإيطالية تؤيد رأي الحكومة الروسية بضرورة فصل الحكومة الإسلامية التي ستؤسس في الحجاز على أنقاض السلطنة العثمانية عن الخلافة، وأن تكون تحت مطلق النفوذ البريطاني.

ب-إن الحكومة الإيطالية تؤيد بكل قواها نزع الخلافة من الأتراك وإلغاءها بتاتا إذا لزم الأمر.

ج-أن تكون حصة إيطاليا في البلاد التي تسلم عن السلطنة العثمانية مساوية تماماً للأراضي التي ستعطي لبريطانيا وفرنسا. (انظر: وثائق التدخل الأجنبي في الوطن العربي-موسى الكاظم التونسي-٣٥-دار البعث-دمشق-١٩٧٢).

فذكرت صحيفة الهلال القومية أثناء احتفال الجمعيات القومية بإسقاط السلطان عبدالحميد، أن منيع استبداد الدول الإسلامية في قديم الزمان وحديثه هو قصر الخلافة ودار الملك والإمارة حيث تكثر دسائس المقرين ويشتد حرصهم على الجاه، وطمعهم في جمع الأموال، والأمة في جميع الأحوال شاخصة ببصرها لا تطلع على خفايا السياسة وتدابير الملك^(١).

وتقول الجمعيات القومية العربية: إن الخلافة في العهد العثماني قد سلمت لقيادة العساكر وإدارة المكاتب العسكرية، وهم أناس لا أهلية لهم ولا يهتمون إلا بالتجسس على أصحاب الأفكار المفرطة، وإبعادهم عن مركز الإدارة، ويعدون ذلك خدمة لمنافع السلطنة والمحافظة على الخلافة الإسلامية^(٢).

ونشرت صحيفة المنار خبر إسقاط السلطان عبدالحميد، ومما ذكرته في الخبر: عز عليه — السلطان عبدالحميد — أن يسلب بالدستور والحرية ما كان ينتحله من صفات الربوبية، ككونه يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد لا راداً لأمره، ولا معقب لحكمه، ولا حدود لأمره ونهجه... وقد كان من أمر الولايات العثمانية عندما علمت بكيد عبدالحميد للحكومة الدستورية أن كتبت إلى مجلس الأمة بوجوب خلعه ونفض اليد من بيعته وإعلانه أن الجنود مستعدة لمحاربه^(٣).

(١) مجلة الهلال - الجزء الثاني - السنة ١٧ - ١٩٠٨/١١/١ - (٧/١٠/١٣٢٦هـ) - ص: ٧١.

(٢) المصدر السابق - الجزء الثالث - السنة ١٧ - ١٩٠٨/١٢/١ - (٧/١١/١٣٢٦هـ) - ص: ١٦٠.

(٣) مجلة المنار - العدد الصادر في ٢٩/٤/١٣٢٧هـ - الموافق ١٩/٥/١٩٠٩.

ويذكر ساطع الحصري أن فكرة الخلافة العثمانية ساعدت كثيراً على استسلام العرب للحكم العثماني، وأخرت كثيراً نشوء فكرة القومية العربية^(١).

وقد اعترض محمد عزة دروزة على قول بعض العلماء بوجوب طاعة السلطان الجائر أو الظالم. واعتبر دروزة هذا القول أنه بسبيل التزلف لبعض الملوك وتوطيد سلطانهم^(٢).

ومع ما في هذا الاعتراض من قدح في علماء الأمة الذين قالوا بوجوب طاعة ولي الأمر وإن كان جائراً دون محاباة لأحد من البشر أو تزلف لمخلوق، فإن فيه رداً لكثير من نصوص الشريعة الدالة على وجوب طاعة ولي الأمر الجائر.

إن الطاعة مبدأ عظيم فيه تستقيم الأمور، وهي من الأمور المهمة التي تساعد في تمكين الدولة من تنفيذ الواجب عليها من حقوق، وقد فهم عمر بن الخطاب هذه القضية فقال: (إِنَّهُ لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ، وَلَا جَمَاعَةَ إِلَّا بِإِمَارَةٍ، وَلَا إِمَارَةَ إِلَّا بِطَاعَةٍ، فَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى الْفِقْهِ كَانَ حَيَاةً لَهُ وَلَهُمْ، وَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى غَيْرِ فِقْهِ كَانَ هَلَاكًا لَهُ وَلَهُمْ)^(٣).

ورغبة في بيان موقف السلف سأسوق أدلتهم في حق الطاعة لولي الأمر الجائر، لأن حق الطاعة لا يلزم أن يكون الإمام عادلاً، فالحاكم الجائر الفاسق

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٣٥.

(٢) الدستور القرآني في شئون الحياة-محمد عزة دروزة-٦٨-أحياء الكتب العربية-١٣٧٦هـ.

(٣) سنن الدارمي-المقدمة-رقم الأثر (٢٥٣).

ولم يصل به فسقه إلى ما يوجب عزله عن الإمامة تجب طاعته، وهذا الذي فهمه السلف من النصوص التالية:

روى حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (..يَكُونُ بَعْدِي أُمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهَدَايِي، وَلَا يَسْتَتُونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رَجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ، قَالَ قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ، قَالَ: تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ) (١).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمَلُنِي كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلَانًا، قَالَ: سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ) (٢).

ولم يوجه الرسول ﷺ أصحابه بالخروج على الولاة إذا جاروا، إنما وجههم عليه أفضل الصلاة والسلام إلى السمع والطاعة ما لم يؤمروا بمعصية، ويجب الصبر على جورهم، وأداء الواجب الذي لهم كما في الأحاديث التالية:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ) (٣).

(١) صحيح مسلم-كتاب-باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحریم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة-رقم الحديث (٣٤٣٥).

(٢) صحيح البخاري-كتاب-باب قول النبي ﷺ للأَنْصَارِ اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ-رقم الحديث (٣٥٠٨).

(٣) صحيح مسلم-كتاب الإمارة-باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحریمها في المعصية-رقم الحديث (٣٤٢٣).

وقال ابن مسعود: قال لنا رسول الله ﷺ: (إِنَّكُمْ سَتَرُونَ بَعْدِي أَثَرَةَ وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ وَسَأَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ)^(١).

وَعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ)^(٢).

لقد روى علماء السلف هذه الأحاديث وبينوها للناس تقرباً لله وبيانا لدينه، ولذا قال الآجري: "من أُمّر عليك من عربي أو غيره، أسود أو أبيض أو عجمي فأطعه فيما ليس لله عز وجل فيه معصية، وإن ظلمك حقاً لك، وإن ضربك ظلماً لك، وانتهك عرضك وأخذ مالك"^(٣) وهذا باتفاق السلف الصالح^(٤).

(١) صحيح البخاري- كتاب الفتن- باب قول النبي ﷺ سَتَرُونَ بَعْدِي أَثَرَةَ وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا- رقم الحديث (٦٥٢٩).

(٢) صحيح مسلم- كتاب الإمارة- باب خِيَارِ الْأُمَّةِ وَشِرَارِهِمْ- رقم الحديث (٣٤٤٧).

(٣) الشريعة- الآجري- ٤٠- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى- ١٤٠٣هـ- وانظر:

١. الشرح والإبانة- ابن بطة- ٢٧٦-٢٧٩.

٢. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة- اللالكائي- ١٥١/٢- ١٨٦.

٣. الحجّة في بيان الحجّة وشرح عقيدة أهل السنة- الأصبهاني- ٣٩١/٢.

٤. شرح العقيدة الطحاوية- ابن أبي العز- ٥٤٠/٢.

(٤) الروضة الندية شرح الدرر البهية- محمد صديق خان- ٧٧٦.

وقد قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "أرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين برهم وفاجرهم ما لم يأمرُوا بمعصية الله، ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به، وغلِبهم بسيفه حتى صار خليفة وجبت طاعته، وحرَم الخروج عليه"^(١).

كما اعتبر دروزة أن اهتمام السلاطين العثمانيين بلقب الخلافة ومداهها عظيم وبخاصة في العهود الأخيرة التي تكالب فيها ملوك أوروبا النصراني على الدولة، حيث كانوا يذهبون إلى أن ذلك يجعل دولتهم ذات مكانة وأهمية عند جميع المسلمين، وبالتالي يجعل هؤلاء الملوك يترددون كثيراً في الإقدام على تحقيق مطامعهم في بلاد الدولة .. وأدى في الوقت نفسه إلى تخدير شعور المسلمين العرب، واستنامة جمهورهم إلى الحكم العثماني، رغم ما صار إليه من ضعف وسوء شديدين، مما ظهر آثاره حينما اشتدت الحركة العربية الحديثة بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨م وطموح القوميين العرب إلى إعادة مجدهم القومي في ظل سلطان عربي وراية عربية^(٢).

وهذا المبدأ مما يؤكد على أن القضية ليست الدولة العثمانية إنما الأصل القضاء على المفهوم الشرعي للخلافة الإسلامية، ولهذا طرحت جمعية رابطة الوطن العربي فكرة تحجيم الخلافة وحصرها في الأمور الدينية، ومقرها الحجاز، وولاية الخليفة على المسلمين بأن سلطته روحية^(٣).

(١) مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب-١١/٥.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١٨٧.

(٣) يقظة الأمة العربية -نجيب عازوري-٣٧.

كما هو الموقف الذي تبناه الكواكبي، وجمعية رابطة الوطن العربي، في مسألة تحديد مكان خاص بالخلافة الدينية، وهو موقف متأثر بفكرة البابا الذي اتخذ مقره في روما، مهد المسيحية الأولى في أوروبا، والذي يرأس المجمع الديني ويتوج الملوك رعاية لسلطان الدين^(١).

دعا المستشرقون إلى هذا القول، ومنهم مؤلف كتاب Future of Islam "مستقبل الإسلام" الذي دعا في سنة ١٨٨٢م، إلى هذا الرأي، فقال: (إن مركز الدين وعاصمته في جزيرة العرب، وهي مهد الإسلام ومهبط الوحي والإلهام .. إن مكة والمدينة هما المأوى الشرعي، والملاذ الروحي لأهل الحل والربط، وستكونان مركز القوة الروحية .. كنا نسمع منذ زمان هذه الجملة السائرة أن (رومة هي العاصمة) كذلك جملة (مكة هي العاصمة) تؤثر تأثيراً بالغاً في الأذهان ..)^(٢).

وشاركت الجمعيات مشاركة فعلية في إسقاط السلطان وإلغاء مقام الخلافة، حينما وضعت يدها في يد جمعية الاتحاد والترقي^(٣) للمساهمة في إسقاط السلطان عبد الحميد، فكانت جمعية الشورى العثمانية التي اتخذت سبيلاً إلى

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر - محمد حسين - ٢٨٣.

(٢) Future of Islam نقلاً عن كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - أبو الحسن الندوي - ٢١٨ - دار السلام - حلب - بيروت - الطبعة الحادية عشرة - ١٣٩٨هـ.

(٣) انظر: ١- سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية - مجدي الصافوري - ١٦٥.

٢- موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية - حسان حلاق - ٣٠٢ - ٣٠٤.

٣- عزيز المصري والحركة العربية (١٩٠٨-١٩١٦) - محمد عبدالرحمن برج - ١٥.

٤- السلطان عبدالحميد الثاني وأثره في نشر الدعوة الإسلامية - محمد قربان نيازملا - ٨٦.

الحث على إلغاء الحكم الاستبدادي والدعوة إلى التحرر والحكم الدستوري في وسائل دعايتها التي تطبع بالعربية والتركية، وترسل منشوراتها إلى الموانئ التركية على البحر الأسود، بواسطة المسافرين، وبحارة المراكب الروسية، ومن هناك يستلمها رسل سريون وتوزع في أنحاء البلاد^(١).

وتمت المكاتبة بين جمعية الاتحاد والترقي وجمعية رابطة الوطن العربي، لإسقاط السلطان عبدالحميد، فمما جاء في المكاتبة:

(إن حزبكم قد تفاهم مع الأكراد والأرمن والألبان والبلغار للقيام بعمل مشترك وما تشرعون به إنما هو التفكيك التام للإمبراطورية، إننا سنكون من رأيكم وسننضم إليكم إذا فقدنا إطلافاً كل أمل في إنقاذ البلاد، أعتقدون إذاً أن السلطان عبدالحميد خالداً؟ بالعكس إنه فان ننتظر موته بين لحظة وأخرى .. ونستطيع التأكيد أن كل شيء في تركيا سيتغير بموته، وستختفي معه هذه العصابة من قطاع الطرق التي تحيطه، لهذا نرجوكم أن تقلعوا عن مشروعكم ، وأن تنتظروا التغيير الذي ننبئكم به حينئذ سنستدعيكم وتقدم لكم المركز الذي يليق بكم)^(٢).

وتم عقد اجتماع في باريس بين مهاجرة الدولة العثمانية (لمحاربة عبدالحميد والقضاء على حكمه المستبد الظالم)^(٣) وكان ذلك عام ١٩٠٧م وقد تولت جمعية الاتحاد والترقي قيادة المؤتمر وتنفيذ برامجها، وهي كما يلي:

(١) العرب والترك - توفيق برو - ٦١. وانظر:

١. المنار - مجلد ١٢، ج ١١ ص ٨٢٤.

٢. حركة اليقظة العربية - محمود منسي - ٩٧.

(٢) يقظة الأمة العربية - نجيب عازوري - ٢٢٢.

(٣) العرب والترك - توفيق برو - ٦٢.

أ — إجبار السلطان عبدالحميد على ترك العرش.

ب — تبديل الأدوار الحاضرة من أساسها.

ج — تأسيس أصول المشروطية والمشورة^(١).

وقد قوّم السلطان عبد الحميد هذا المؤتمر، وبيّن أن هؤلاء الشباب منقادون لما يدبره بعض المتآمرين من الرجال المغرورين. إنهم يقدمون شعارات براءة كتوعية الأمة وترقيتها، بغية القضاء على النظام القائم وهدم ما بناه الأجداد طيلة قرون خلت، وفي الحقيقة إنهم يريدون الإطاحة برجال دولتي المجرين وتولي زمام الأمور بأنفسهم، إنهم عصابة منافقة ذنيعة تنكرت لدينها ووطنها، وحالفت الصليبية العدو في القضاء على أبناء جلدتنا وأخواتنا في الإسلام^(٢).

ومن نتائج هذا المؤتمر إنشاء جمعية باسم (جمعية التشبث الشخصي واللامركزية) وتأسست لها شعبة بدمشق من قبل رفيق العظم وحقى العظم، ثم في اللاذقية وفي عالية، وقد تضمن برنامج (جمعية التشبث الشخصي واللامركزية): الحكم على أساس اللامركزية، وتوسيع الصلاحية في الولايات^(٣) ومرادهم بالتشبث الشخصي أن لا تكون الأهالي عالة على حكومتهم بل يسلكوا سبل التجارة والصناعة والزراعة في أمر معاشهم^(٤) وهذا نوع من

(١) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية-حسان علي حلاق-٢٩٤.

(٢) السلطان عبدالحميد الثاني-مذكراتي السياسية-٤٦-مؤسسة الرسالة-الطبعة الثالثة-١٤٠٢هـ.

(٣) العرب والترك - توفيق برو-٦٤.

(٤) مجلة الهلال-الجزء الثالث-السنة ١٧-١/١٢/١٩٠٨ (٧/١١/١٣٢٦هـ)-ص:١٦٦.

الاستقلال الاقتصادي. ويعتبر رفيق العظم من أبرز العرب المنتسبين إلى الجمعية^(١).

لقد اتفقت مواقف الجمعيات القومية العربية على خلع السلطان عبدالحميد، مع موقف جمعية الاتحاد والترقي، فقد عقد مجلس النواب اجتماعاته بعد نقض السلطان عبدالحميد الدستور، وكان منهم عبدالحميد الزهراوي، وقرروا خلع السلطان عبدالحميد، وحل محله السلطان محمد الخامس^(٢).

ووضع محمود شوكت^(٣) وأركان حربه خطة الزحف على استنبول بدقة تامة .. وكانت مهمة عزيز علي احتلال محطة استنبول والاستيلاء على كوبرى... الخ^(٤).

وبهذا يظهر تدبير الماسونية وتخطيطها للقضاء على (الخلافة) بالقضاء على السلطان عبدالحميد، متخذة أعضاء الماسونية من الترك والعرب لتنفيذ هذه المهمة، وقد صرح بهذا الأمر جرجي زيدان النصراني الماسوني^(٥) وأصبحت شعارات الماسونية (العدالة والمساواة والأخوة) تلوونها ألسن الناس.

(١) المصدر السابق-الجزء الأول-السنة ١٧-١٠/١/١٩٠٨ (١٣٢٦/٩/٦هـ)-ص: ١٩.

(٢) محمد الخامس: ولد سنة ١٨٤٤م، وتولى السلطة بعد خلع أخيه السلطان عبدالحميد ١٩٠٩م، ولم يكن له من الأمر شيء حتى استبد الاتحاديون بالسلطة من دونه، وأبرز الأحداث التي وقعت في عهده: احتلال ليبيا من قبل إيطاليا، وقيام الاضطرابات في البلقان، ثم دخول تركيا الحرب العالمية إلى جانب ألمانيا== حيث خسرت الحرب، وبالتالي ممتلكاتها في آسيا وأفريقيا وأوروبا، توفي سنة ١٣٣٧هـ-١٩١٨م. انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية-محمد فريد وحدي-٧٠٩.

(٣) انظر الترجمة رقم (٦٥).

(٤) مذكراتي على هامش القومية العربية - أسعد داغر - ٣٢-٣٤ بتصرف

(٥) المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية-أنور الجندي-٩٧-دار الاعتصام-مصر-الطبعة الثانية-١٣٩٧هـ.

ولا يخفي الماسون علاقتهم بالانقلاب العثماني بل إنهم يفخرون بالأدوار الإجرامية التي قاموا بها، وقد قال الفيلسوف الماسوني شاربيا في حفل أقيم للماسون: "انظروا إلى إخوانكم الماسونيين السالونيكين الذي قاموا بالحركة الدستورية التي قلبت الحكم العثماني في آخر عهد السلطان عبد الحميد دون أن تسيل نقطة دم واحدة، أجل فبمثل هذا الشعب الماسوني تفخر الماسونية ويعظم من شأن وسائلها السلمية السليمة"^(١). ولا يعلم هذا التافه أن العثمانيين انسحبوا برضى منهم لكي لا تسيل قطرة دم من مسلم واحد.

وبعد تجريد (الخليفة) من سلطة التنفيذ واعتبار سلطته روحية، لم تمض فترة زمنية حتى أعلن مصطفى كمال أتاتورك - الصديق الحميم لعزير علي المصري^(٢) - إلغاء الخلافة، واستبدل عوضاً عنها (الجمهورية) عام ١٩٢٤^(٣).

ثالثاً: طلبُ مناصرةِ الدولِ الكافرةِ للقضايا القومية:

إن استغلال الجمعيات القومية العربية من قبل الدول الصليبية قضية لا تحتاج إلى برهان، فقد احتُضن أعضاء الجمعيات في معاهدها ومدارسها، ومن

(١) تاريخ الدولة العثمانية-علي حسون-٢٥٤.

(٢) عزيز المصري والحركة العربية-محمد عبدالرحمن برج-١٥.

(٣) الحديث المفصل لتطور سير إلغاء الخلافة انظر:

١. تاريخ الدولة العثمانية العلية-محمد فريد-٧١٨.
٢. التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة-أحمد السعيد سليمان-٦٠.
٣. كمال أتاتورك-محمد صبيح.
٤. الرجل الصنم-ضابط تركي سابق-٢٩٤.
٥. كيف هدمت الخلافة-عبدالقدم زلوم-١٧٤-١٩٠.
٦. سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية-محمدي الصافوري-١٣٤.

خلال النظر في سير أعضاء الجمعيات القومية العربية نلاحظ أن الغالب منهم تلقى العلم في البلاد الفرنسية، وكان من آخر مؤسسي الجمعيات القومية ميشيل عفلق وصلاح البيطار الذين تخرجوا من الجامعات الفرنسية^(١).

لقد علم أعضاء الجمعيات أثناء سفرهم إلى أوروبا وتثقفهم بالعلوم العصرية والاطلاع على مجاري السياسة أنهم لا يرجون نهوض دولتهم من ذلك الخمول، ولا يتوقعون التغلب على ذلك التيار القوي إلا إذا نصرتهم بعض الدول العظمى، فجاهروا باستنصارهن^(٢).

وتعتبر جمعية رابطة الوطن العربي^(٣) من أبرز الجمعيات القومية العربية التي نادى صراحة بمساندة الدول الصليبية للقضايا العربية، فقد دعا مؤسس الجمعية نجيب عازوري النصراني: "الدول المستنيرة والإنسانية في أوروبا وأميركا الشمالية أن تساعد حركتنا بفضل حيادها وتشجعنا بعطفها"^(٤).

كما صورت الجمعية الدولة العثمانية بأنها جماعة من قطاع الطرق يقودهم مجرم، فهي لا تكتفي فقط بألا تعمل شيئاً لتحسين وضع الفلاح، ولكنها تعمل بانتظام لتخرب هذا البلد التعيس تدريجياً، لا أمن ولا سلام ولا عدالة في تركيا^(٥).

(١) انظر: ميشيل عفلق الكتابات الأولى-ذوقان قرقروط-٣٩.

(٢) مجلة الهلال-الجزء الأول-السنة ١٧-١٠/١٠/١٩٠٨ (٦/٩/١٣٢٦هـ)-ص:٣٩.

(٣) العرب والترك-توفيق برو-٧٧.

(٤) يقظة الأمة العربية-نجيب عازوري-٣٨.

(٥) يقظة الأمة العربية - نجيب عازوري - ٦١.

وسلكت الجمعية مسلك المقارنة بين الدول النصرانية والدولة العثمانية، فقالت: إن الإنكليز يحسنون اختيار الرجل المناسب للمركز المناسب، أو الرجل المناسب في المكان المناسب، يولون مواطني البلد كل وظيفة تضع صاحبها في احتكاك مباشر مع الشعب^(١) وأما في الدولة العثمانية (يتحكم الرجال الأقوياء والموظفون بالحياة والشرف والمنافع العامة جميعها فكل لحظه)^(٢).

وعن الحالة المالية بينت الجمعيات القومية العربية أن بعض الزُّراع بالدولة العثمانية باعوا أراضيهم وزوجوا بناقهم بالجبر ليأخذوا صداقهن ويسددوا ما قيد عليهم ذمة من الأموال الأميرية، فصار الفلاح يتجنب زراعة الأرض إلا بقدر حاجته الضرورية. وفي مقابل وصف هذه الحال وُصفت حال الزراع في أوروبا بأن الفلاح عمّر الأرض الموات وجعلها مخصبة بعمله وحرثته. فحيثما توجهت في أوروبا لا ترى إلا مروجاً نضرة وأشجاراً وكروماً مخضرة وأثماراً جارياً كأنها بستان عظيم ليس فيه قطعة أرض خراب^(٣).

لقد كان بين الجمعيات القومية العربية والدول الصليبية التقاء فكري، فانتدبت الدول الصليبية لمنصرة أحرار العرب، وقدمت الخدمات والتسهيلات لمساندة قضيتهم، فوافقت الدول الصليبية على إقامة المؤتمر العربي الأول الذي

(١) المصدر السابق-١٠٨.

(٢) المصدر السابق-٦٢. وانظر:

١. يقظة العرب - جورج انطونيوس - ١٧٢.

٢. حول الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة - ١٩/١ - ٢٠.

٣. نشأة الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة - ١٠٢.

(٣) مجلة الهلال-الجزء الثالث-السنة ١٧-١٩٠٨/١٢/١-١٩٠٨/١١/٧ (١٣٢٦هـ)-ص: ١٥٩.

عقد في باريس وذلك للفترة من تاريخ ١٤/٧/١٣٣١هـ الموافق ١٨/٦/١٩١٣ إلى تاريخ ١٩/٧/١٣٣١هـ الموافق ٢٣/٦/١٩١٣. وقد أوضحت الجمعيات القومية العربية الغاية من هذا المؤتمر، وتمت مناقشة بعض الموضوعات التي تخص واقع العرب في الدولة العثمانية، ومنها:

١. مناقشة حقوق العرب في المملكة العثمانية.

٢. موضوع الإصلاح على قاعدة اللامركزية.

٣. إشراك العرب في إدارة الدولة، وتوسيع السلطة.

٤. الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال.

٥. واقع العرب المهاجرة، وأسباب هجرتهم... الخ

وقد أجرت جريدة (الطمان) الفرنسية حواراً صحفياً مع رئيس المؤتمر، ومما جاء فيه: لماذا عقدتم المؤتمر في باريس؟ أجاب: .. أن نسمع مطالبنا ونفهم رأينا لأوروبا التي تزداد أهمية مصالحها في البلاد العثمانية يوماً بعد يوم. وإننا بإقامتنا بينكم وبالاحتكاك الضروري الذي سيكون لنا بكم نتوصل لإزالة أوهام وسوء تفاهم عظيم، ويمكننا أن نضع أساس تفاهم بين الشرق والغرب^(١).

ولما اشتعلت نيران الحرب العامة وألغيت الامتيازات الأجنبية أسرعت الدولة العثمانية — جمعية الاتحاد والترقي — إلى تفتيش القنصليات المعادية، فوقع

(١) المؤتمر العربي الأول - محب الدين الخطيب. وانظر:

ثورة العرب - أحد أعضاء الجمعيات السرية - ٦٩-٧٨.

في يدها بعض الوثائق السرية وبها تمكنت أن تكشف كثيراً من أسرار الجمعيات العربية^(١).

ومن تلك الاعترافات المنسوبة لعبدالغني العريسي — أحد مؤسسي الجمعيات — عن المنتدى الأدبي في استنبول قوله « والغاية من تأسيسه أن يجمع كل الطلاب العرب ويث فيهم فكرة القومية وهضفة العرب بأية واسطة كانت ولو بمساعدة الدول الأجنبية التي تؤدي إلى احتلال أو حماية »^(٢).

وقد وافقت اللجنة العليا لجمعية الفتاة في اجتماعها على القرار التالي: «نتيجة لاشتراك تركية في الحرب أصبح مصير الولايات العربية في الدولة العثمانية معرضاً لمخاطر شديدة، ويجب بذل جميع الجهود لضمان حريتها واستقلالها».

واجتمع الملك فيصل ببعض أعضاء جمعية العهد وهي المنظمة السرية التي تضم ضباط الجيش، وقد تم هذا الاجتماع بتدبير أحد الأعضاء الذين ينتمون إلى الجمعيتين في آن واحد، وقد وجد أن موقف هذه المنظمة مطابق لموقف الجمعية السابقة: فكانت كلتاها ترغبان في الانفصال عن الأتراك^(٣).

(١) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث-أنيس المقدسي-١٤٠ وانظر:

١. التحقيقات-جمال باشا.

٢. الثورة العربية-أمين سعيد-١/٦٦.

(٢) التحقيقات-جمال باشا-٦. وانظر: الحركة العربية-سليمان موسى-٨٤.

(٣) يقظة العرب-جورج انطونيوس-٢٣٧.

وقبل الحرب العالمية الأولى ضمت الجمعيات القومية العربية (لورانس)، من أجل أن يطلع على جهود الجمعيات العربية ومشاركتها في الحرب، وقد صرح لورانس بسبب مجيئه إلى البلاد العربية، فقد قال: "أخذت أفكر طول الطريق في سوريا وفي الحج وأتساءل: هل تتغلب القومية ذات يوم على التزعة الدينية، وهل يغلب الاعتقاد الوطني المعتقدات الدينية، وبمعنى أوضح هل تحمل المثل العليا السياسية مكان الوحي والإلهام، وتستبدل سوريا مثلها الأعلى الديني بمثلها الأعلى الوطني"^(١).

وقد كتب لورانس تقريراً عن الثورة العربية وذكر فيها: "إن الثورة مقدرٌ لها النجاح المحتوم فيما إذا ألحق بها ضباط بريطانيون ويتكلمون العربية ليسدوا إلى قادتها النصائح اللازمة، وبعد اطلاع مدير إدارة الشؤون العسكرية المتعلقة بالثورة العربية على التقرير قال لورانس: سر بنظرتي المتفائلة، فالثورة العربية كانت حلمه الأكبر منذ سنين طوال"^(٢).

وقد تخلى أعضاء الجمعيات القومية العربية عن الدولة العثمانية أثناء الحرب، وقدموا العون والمساعدات للجيش البريطاني على أمل أن تتحقق آمالهم وتطلعهم للحرية والاستقلال، لا سيما وأن الإنجليز قد أظهروا أنفسهم في البداية بمظهر المحررين لا الغازين، وأعلن الجنرال مود (Maude) قائد القوات البريطانية في العراق عن رغبة الحلفاء في النهوض بالعنصر العربي ليأخذ مكانته بين الأمم"^(٣).

(١) الثورة العربية-لورانس-١٢.

(٢) أعمدة الحكمة السبعة-لورانس-٦١.

(٣) تاريخ العرب المعاصر ٢٣٢/ عبد الوهاب عبد الرحمن-دار القلم-دي-الطبعة الأولى-١٤٠٧هـ.

ويذكر خير الدين الزركلي — أحد أعضاء الجمعيات القومية — نداء الدول الصليبية أثناء الحرب العالمية للدول العربية خاصة وللعالم عامة، فيقول: يوم ٧ نوفمبر ١٩١٨ (١٣٣٧هـ) البلاغ المشترك الذي أذاعته الحكومتان البريطانية والفرنسية، ونصه: "إن الغرض الذي ترمي إليه فرنسا وبريطانيا العظمى بمواصلتهما في الشرق: هو تحرير الشعوب التي طالما ظلمها الترك، تحريراً نهائياً، وتأسيس حكومات ومصالح أهلية، تبنى سلطتها على اختيار الأهالي الوطنيين لها اختياراً حراً وقيامهم بذلك من تلقاء أنفسهم، وتنفيذاً لهذه النيات قد وقع الاتفاق على تشجيع العمل لتأسيس حكومات ومصالح أهلية في سورية والعراق اللتين أتم الحلفاء تحريرهما في البلاد التي يواصلون العمل لتحريرها^(١).

بعد عرض الموقف السابق من الدولة العثمانية وما يتعلق بالسلطان عبد الحميد خاصة يجدر التنبيه إلى ما يلي:

١- إن أغلب من دعا إلى هذه المواقف ونشرها بين الناس هم من النصارى العرب، وتجد دعماً من جمعيات كافرة، فقد تم إدخال برنامج جمعية بيروت السرية ببرامج المحافل الماسونية، وانضم الكثير من أعضاء الجمعيات القومية وبخاصة البارزين في المحافل الماسونية^(٢).

(١) ما رأيت وما سمعت - خير الدين الزركلي - ٥٠.

(٢) انظر : ١ - نشوء القومية العربية - زين نور الدين زين - ٦١ .

٢ - يقظة العرب - جورج انطونيوس - ١٤٩.

وقد بين فارس نمر - أحد مؤسسي جمعية بيروت السرية - عن أصل النخبة التي تولت إنشاء الجمعيات، فيقول: (كان في لبنان جماعة صغيرة من الشبان وجلهم من النصارى الذين درسوا في الكلية السورية الإنجيلية تطالب أولاً بتحرير لبنان من الحكم التركي .. وكان أخطر ما أقلق نفوس أولئك الشبان هو احتقار الأتراك لهم، واعتبارهم أدنى شأنًا منهم، مما جعلهم يشعرون بالإهانة، غير أن العربي المسلم عندما يتكلم عن الإمبراطورية العثمانية كان يستطيع أن يقول إنها إمبراطوريته لأنها كانت إمبراطورية إسلامية، والواقع أن المسلم لم يكن يشعر بأنه غريب في وطن غريب عنه، بل كان الأمر على نقيض ذلك)^(١).

وقد اعتبرت صحف الجمعيات القومية العربية، نجاح الانقلاب العثماني والقضاء على الخلافة الإسلامية أن تعلمت النشأة الجديدة من الصبيان والبنات اللغات الأجنبية، وطالعوا الجرائد والكتب ووقفوا على عورات الدولة وأدركوا محل الخلل، وصار يتخرج في كل سنة من هذه المدارس عدد عظيم متشربون فكر الحرية، ومتخلقون بالأخلاق الأوربية والحماسة الوطنية^(٢).

(١) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٦٠ وانظر:

١. يقظة العرب - جورج انطونيوس - ١٥٢.
 ٢. القومية العربية تاريخها مرامها -مصطفى الشهابي-٥٠.
 ٣. حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي-محمود منسي-٩١.
 ٤. العرب والتركي في العهد الدستوري-توفيق برو-٤٠.
- (٢) مجلة الهلال-الجزء الثالث-السنة ١٧-١/١٢/١٩٠٨ (٧/١١/١٣٢٦هـ)-ص:١٦٨.

٢- لم يظهر عند المسلمين - في تلك الفترة - ما يسمى « بالوعي القومي»^(١) فقد كان مفهوم الولاء على أساس الدين، سوى عند أعضاء الجمعيات القومية العربية، وأما بقية المسلمين كان تأثير هذه المواقف عليهم ضعيفاً جداً.

ويدل على هذا أن وكيل القنصل العام الإنكليزي في بيروت جون ديكسون (John Dikson) قال في رسالته إلى السفير البريطاني في استنبول: (يسعدني أن أخبركم بأن إصدار هذه المناشير وتوزيعها لم يكن له من أثر في نفوس أهل بيروت، و إذا كانت قد أحدثت ضجة فإنها أقرب إلى أن تكون استغراباً وفضولاً في معرفة مصدرها من أن تكون إحساساً وطنياً، لكنها قد تكون علامة تشير إلى أن في الأفق بوادر تدمير...)^(٢).

(١) العرب والترك-توفيق برو-٤٣.

(٢) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٦٦.

المبحث الثاني: موقفها من الجامعة الإسلامية

في المبحث الأول، أوضحت موقف الجمعيات العربية من الدولة العثمانية، وفي هذا المبحث سأبين موقف الجمعيات من الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

إن المقصود بالجامعة الإسلامية هي الرابطة التي تربط كل من يدين بهذا الدين، دون النظر إلى جنسه أو لونه أو لغته، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١). وتأليف القلوب على منهج الوحدة الإسلامية هي من المنن التي أمتن الله بها على عباده كما قال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٣).

ومن أبرز معالم هذه الوحدة أن التفاضل يكون في التقوى، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران-رقم الآية (١٠٣).

(٢) سورة الأنفال- رقم الآية (٦٣).

(٣) سورة الحجرات-رقم الآية (١٠).

(٤) سورة الحجرات-رقم الآية (١٣).

وتقرير مبدأ الرابطة الإسلامية ثابت في السنة النبوية، فقد وجه النبي ﷺ أمته بأن يكونوا كما قال: (.. كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسَبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ؛ وَمَالُهُ؛ وَعَرَضُهُ)^(١). وقد نهى النبي ﷺ عن كل ما يفسد هذه المواخاة، كما قال: (لَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ)^(٢).

ولما عُرف — عند العرب في الجاهلية — ولأئ القبيلة والحسب والنسب، فقد سأله الصحابة: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: (أَتْفَاهِمُ) قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَأَلُكَ، قَالَ: (فِيُوسُفُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ) قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَأَلُكَ. قَالَ: (فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسَأَلُونِي، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَتُّهُوا)^(٣).

وقد سطرت كتب السير حادثة المواخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار، وضربت أروع الأمثلة في عمق الولاء للرابطة الدينية، ومن هذه الأمثلة ما يخبر به عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: (لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: "إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا؛ فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَأَنْظُرُ أَيَّ زَوْجَتِي هَوَيْتَ؛ نَزَلْتُ

(١) صحيح مسلم-كتاب-باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره-رقم الحديث(٤٦٥٠).

(٢) صحيح البخاري-كتاب-باب الهجرة وقول رسول الله ﷺ-رقم الحديث(٥٦١٢).

(٣) صحيح مسلم-كتاب-باب من فضائل يوسف عليه السلام-رقم الحديث(٤٣٨٣).

لَكَ عَنْهَا فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا"، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ..^(١).

وأمام هذا الموقف العظيم اعترف المهاجرون بهذه النعمة، ولهجت أنفسهم بكرم الأنصار، فقال أنس: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ أَتَاهُ الْمُهَاجِرُونَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبَدَلْ مِنْ كَثِيرٍ، وَلَا أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ، مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤَنَةَ، وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَاءِ، حَتَّى لَقَدْ خَفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَا مَا دَعَوْتُمْ اللَّهَ لَهُمْ وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ)^(٢).

فكانت الرابطة الجامعة بينهم الأخوة الإسلامية، والتي بها نقضت الموالاتة الجاهلية الأخرى، ولذا لما قال عبدالله بن أبي بن سلول زعيم أهل النفاق: (..وَاللَّهِ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: "دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ" فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (دَعُهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ). في هذه الحال ظهرت رابطة الأخوة الإسلامية والتي تفوق رابطة الأبوة، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: (وَاللَّهِ لَا تَنْقَلِبُ حَتَّى تُقَرَّ أَنَّكَ الذَّلِيلُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَزِيزُ، فَفَعَلَ)^(٣).

(١) صحيح البخاري-كتاب البيوع-باب ما جاء في قول الله تعالى (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ -رقم الحديث (١٩٠٧).

(٢) سنن الترمذي-كتاب صفة القيامة والرقائق والورع-باب ما جاء في صفة أواني الحوض-رقم الحديث (٢٤٨٧). وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ. وانظر:

• مسند الإمام أحمد-٣/٢٠٠، ٢٠٤.

(٣) سنن الترمذي-كتاب تفسير القرآن-باب ومن سورة المنافقين-رقم الحديث (٣٢٣٧) وقال الترمذي: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

لقد أصبح هذا المجتمع الذي أقامه الإسلام مجتمعاً عقائدياً يرتبط بالإسلام، ولا يعرف الموالاتة إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط وأرقاه، إذ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض تكافؤاً دماً وهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، وهذا المجتمع مفتوح لمن أراد أن ينتمي إليه مهما كان لونه أو جنسه على أن ينخلع من صفاته الجاهلية ويكتسب الشخصية الإسلامية ليتمتع بسائر حقوق المسلمين^(١).

وحينما تولى أعضاء الجمعيات القومية العربية منابر التأثير في المجتمع من صحف ومجلات وغيرها، نادوا برابطة الجاهلية المقيتة في واقع المسلمين، متبعين في ذلك المنظمات والجمعيات الماسونية، واستجاب لهذه الدعوة وناصرها النصارى العرب من أولئك الأعضاء.

وفي الجانب الآخر نبذت الجمعيات القومية العربية الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، وأكدت على عدم الالتفاف حولها وضعف تأثيرها في واقع المجتمع. وما ذكرته هو ملخص لما سأنقله من نصوص وأنظمة الجمعيات القومية العربية حول الجامعة الإسلامية.

لقد نصت دساتير الجمعيات القومية العربية على أن الرابطة التي تجمع أعضاء الجمعيات هي رابطة القومية، فمن نظام جمعية الإخاء العربي العثماني: "يحق لكل فرد من أبناء العرب — والعربي كل من ينتسب إلى العرب مولداً

(١) السيرة النبوية الصحيحة - أكرم ضياء العمري - ٢٥٢/١.

وموطناً — أن يكون عضواً في جمعية الإخاء العربي العثماني، بشرط أن يكون متصفاً بحسن الخلق والشهرة"^(١).

كما كان منهج المنتدى الأدبي في أوائل تأسيسه، هو: "ضرورة وجدوى احتفاظ كل قومية من القوميات العثمانية بطابعها المميز ولغتها وتقاليدها، وإحياء أمجادها، وتنمية الشعور القومي فيها، ضمن رابطة جامعة هي رابطة العثمانية .. وأن تنضوي القوميات تحت جناحها في نظام ديمقراطي حر، وفي جو من الإخاء والمساواة الذي يهيئ لجميع العناصر والأديان العيش الهنيئ الرغيد"^(٢) وعلى نفس المنهج سارت جمعية العربية الفتاة كما في فقرة (١٣) من نظامها: "ومبدأها في ذلك عربي فيها قبل كل شيء وفي كل شيء"^(٣).

(رابطة القومية العربية أساس الوحدة) هي من أبرز أسس دساتير الجمعيات القومية، ففي حزب البعث العربي يقول: شبلي العيسى — أحد مؤسسي حزب البعث — يسعى الحزب لعدم زج أمور الدين بأمور الدولة، ففي عام ١٩٥٠ تظاهر الأخوان المسلمون في القطر السوري مطالبين بالنص في دستور البلاد على أن يكون الإسلام دين الدولة، فقاوم الحزب ذلك وأحبطه معتبراً الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة التي تكفل الانسجام بين المواطنين^(٤).

(١) الثورة العربية الكبرى — أمين سعيد — ٧. وانظر:

- نشأة الحركة العربية الحديثة — محمد دروزة — ٣٥١.
- (٢) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني — ٢٦٤.
- (٣) نشأة الحركة العربية الحديثة — محمد عزة دروزة — ٤٩١.
- (٤) رسالة الأمة العربية — شبلي العيسى — ٦٩.

ويبين أسعد داغر مواقف أعضاء الجمعيات القومية من الجامعة الإسلامية، قائلاً: "إن القومية هي الأساس الذي يجب أن تقوم عليه الدول منذ الآن، وأن الجهود كلها يجب أن توجه إلى خدمة الفكرة العربية مجردة عن كل شيء .

وفي مُقدِّمة من يقول بهذا القول الضباط والشيوخ والنواب والمفكرون من شبان العرب، فقد أجمعوا على أن لا حياة للأمم في هذا العصر إلا على أساس القومية، وأن العمل لفكرة الجامعة الإسلامية إنما هو هدم لفكرة الاستقلال عن تركيا الإسلامية، وهي الفكرة التي كانت قد اختمرت في عقولهم بعد أن قطعوا كل أمل في إصلاح ما فسد من أمر الترك"^(١).

إن الدعوة التي تبنتها الجمعيات القومية من نبد الرابطة الإسلامية والانتماء إلى الرابطة القومية، هي دعوة إلى القوميات الجاهلية، وتقليدًا للقوميات التي ظهرت في وقت تأسيس الجمعيات، ولذا نجد أعضاءها عندما يعدّون مزايا المجتمعات الغربية يذكرون من أبرزها: نبد الوحدة الدينية، والتعاقد والالتقاء حول الرابطة القومية والوطنية.

ويعمل هذا نادي رفيق العظم عندما ذكر خصال المجتمع الغربي النصراني، قائلاً: "يجب من العدل والإنصاف الاعتراف بفضل المدنية الأوربية التي نهضت بالإنسانية إلى مترلة سامية لم تبلغها من قبل، وأن الاحتكاك بالأوروبيين قد نفع الشرق نفعاً محسوساً، فنحن مدينون لهم بالرقى العقلي والصناعي"^(٢).

(١) مذكراتي على هامش القومية العربية - أسعد داغر - ٤٦ .

(٢) مجموعة آثار رفيق العظم - (رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة) - ٨١-٨٣ .

وهذه المدينة التي أثنى عليها رفيق العظم، قال عن الرابطة التي تجمع بين أفرادها: "إن الحياة السياسية في أوروبا قد صارت أو كادت تصير بمعزل عن الاعتقاد. فالغربي إذا حكم في الشرق مسيحياً مثلاً لا ينظر إلى ما بينهما من المشاركة في الاعتقاد، بل ينظر إلى المصلحة"^(١).

وهذا التغير الذي حدث في المجتمعات النصرانية كان بعد نبذ الدين كما يقول رفيق العظم: "إن الأمم المسيحية لما كانت مسوقة في أوروبا بيدي الكهنة والملوك مأخوذة الإرادة بقوة هاتين الفئتين كانت ليس لها من الأمر إلا أن تدعى إلى عمل فتجيب، وتساق إلى حرب فتسير"^(٢).

ويجمع أعضاء الجمعيات القومية العربية على الدعوة إلى رابطة القومية، فمن أقوال الأعضاء: قول عبد الحميد الزهراوي وهو يبين منهجية ومبدأ المؤتمر العربي الأول، قال: "إن الرابطة الدينية قد عجزت دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية، وأنا لا أرجع إلى التاريخ لأبرهن على هذا بل حسبي ما لدينا الآن من الشواهد الحاضرة، انظر إلى الحكومة العثمانية والفارسية كيف لم تقو رابطتهما الدينية على إزالة اختلاف بسيط من بينهما وهو الاختلاف المتعلق بالحدود"^(٣).

(١) مجموعة آثار رفيق العظم - (رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة) - ٨٣.

(٢) المصدر السابق - (رسالة الجامعة الإسلامية) - ٥٧.

(٣) المؤتمر العربي الأول - ٢١.

قال رفيق العظم: "للاجتماع نظمات وروابط، وهي العصبيات، تكاد تكون طبيعية بين البشر، أهمها الروابط العامة التي تجمع قوماً أو أقواماً كثيرين على كلمة واحدة، وهي رابطة العشيرة أو الجنس أو الوطن أو الدين".

ثم بين العظم أولوية هذه الروابط، بقوله: "إن رابطة الجنس والوطن فإنها طبيعية الوجود، لا سبيل إلى انحلالها إلا بانحلال القوم المتسبين إليها، ويلى هاتين في المترلة العصبية الدينية، وقل ما جمع الدين كلمة أهله بأجمعهم إلا في الشاذ النادر، اللهم في العواطف دون الفعل.. إن أقل هذه الروابط تأثيراً في المجتمعات رابطة الدين"^(١).

وعلى نفس المبدأ يلتقي رفيق العظم مع ساطع الحصري وغيره من أعضاء الجمعيات القومية العربية، يقول الحصري: "لا وحدة الدين، ولا وحدة الدولة، ولا وحدة الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية"^(٢).

وقال توفيق البساط^(٣): "إذا كنا نريد الجامعة الإسلامية فلماذا نحاول بث الفكرة العربية؟!".

وقال عبدالكريم الخليل: "إن فكرة الجامعة الإسلامية تؤدي إلى الوهن أكثر منها إلى القوة، لأنها تنفر الغرب، بينما لا تستطيع أن تمد الشرق بقوة".

(١) مجموعة آثار رفيق العظم - (رسالة الجامعة الإسلامية) - ٤٩.

(٢) أبحاث مختارة في القومية العربية - ساطع الحصري - ٢٠٥.

(٣) انظر الترجمة رقم (١١).

ويقول داغر: "والذي أعرفه عن ثقة ويمكنني إعلانه الآن على رؤوس الأشهاد أنه لم يكن بين أصدقائي الذي قامت النهضة العربية على أكتافهم أو على جماجمهم سواء في سورية أو العراق أو فلسطين أو لبنان أو غيرها من يفكر في اتخاذ الفكرة الإسلامية أساساً للوحدة والاستقلال، بل إنهم جميعاً كانوا يعملون على تعزيز روح القومية البحتة وإحياء مجد العرب على أساس هذه الروح"^(١).

ويؤكد أعضاء الجمعيات القومية العربية على أن الدعوة إلى الوحدة القومية لا يجتمع مع الوحدة الإسلامية، لأن الوحدة الإسلامية تقرر بمشروعية مبدأ الخلافة الإسلامية، ولذا يقول أسعد داغر: "كيف يمكننا أن نوفق بين اعتناقنا لفكرة الجامعة الإسلامية وقيامنا ضد دولة الخلافة؟!!"^(٢).

وقال دروزة: "لم يشذ سير الفكرة عن ناموس النشوء والتدرج العام حسب الظروف والعوامل المتنوعة، فالفكرة في ثوبها الجديد طارئة، وفي ظرف كان العرب على نسبة كبيرة من الضعف والتفكك والغفلة والجهل، والاستغراق في معنى الوحدة الإسلامية والأخوة التركية.."^(٣). فهو يرى أن من الظروف الصعبة التي مرت بها الحركة القومية: الجهل، والتفكك، وكذلك الوحدة الإسلامية.

(١) مذكراتي على هامش. قومية العربية - أسعد داغر - ٤٦.

(٢) المصدر السابق - ٤٦.

(٣) حول الحركة العربية الحديثة - ٢٣/١.

ويعتبرُ القوميون الوحدة الإسلامية إنما هي كما يقول عبدالرحمن البزاز: "شعار للإبقاء على الأنظمة الرجعية المتهترئة في العالم العربي، والدين لا يمكن أن يكون قوام القومية أو ركناً أساسياً من أركانها، فهو من ثم لا يصلح أساساً لوحدة سياسية"^(١).

وأما تحقيق الوحدة القومية كما يقول محمد محمد خلف الله: "فإنها أقرب منناً من تحقيق الوحدة الإسلامية، إن مصلحتنا اليوم في تحقيق هذا الهدف القريب. ثم إن الفكرة العربية أكثر انتشاراً وأوسع نفوذاً من الفكرة الإسلامية، إنها تشمل سكان العالم العربي جميعاً"^(٢).

وتُعدُّ في لوازم الدعوة إلى ولاء القومية نبذُ الولاء والبراء على أسس الدين، فقد كان من مبادئ الجمعيات القومية العربية عدم تبني مبدأ الولاء الديني، ففتحت عضويتها لجميع معتقدي المذاهب والنحل.

لقد أصبح من أنظمة الجمعيات القومية أن طائفة منهم تعالج واقع المسلمين من منظور ما يعتقدوه العضو العلماني أو النصراني أو اليهودي... الخ. فكان نصيب ساطع الحصري مثلاً في التقسيم الوزاري في الدولة العربية الأولى، أن أصبح وزيراً للمعارف في تلك الدولة الفتية^(٣) وقد تولى هذا المنصب الهام في

(١) هذه قوميتنا-عبدالرحمن البزاز.

(٢) مجلة العربي الكويتية-العدد الأول ديسمبر ١٩٥٨-٢٤-مقال محمد أحمد خلف (القومية العربية كما ينبغي أن نفهمها). العرب والإسلام-الندوي-١٦-١٧. وانظر:

قضية العرب-علي ناصر الدين-١١٨-هامش رقم(٢).

(٣) خواطر وأحاديث في التاريخ-بجدة فتحي صفوة-١٦١.

توجيه الأمة، مع وصف القوميين له، بأنه أشد المفكرين العرب تعصباً لعلمانية القومية العربية^(١).

ويذكر القوميون أنه عندما قدمت عريضة مقدمة من شكري العسلي — أحد أعضاء الجمعيات القومية — إلى جمعية الاتحاد والترقي بشأن المطالبة بحقوق العرب في مجلس الدولة، وأن ممثلي العرب قلّة مقارنةً بعددهم في الدولة، قال القوميون: "فاستغلت جمعية الاتحاد والترقي هذا الطلب بضرب العرب بعضهم ببعض وإثارة الطائفية الدينية، فجاءت مكاتباتٌ تندد بفكرة شكري العسلي ويهيئون بالتمسك بالجامعة الإسلامية".

وحيثما عرض هذا المبدأ — التمسك بالجامعة الإسلامية — في الجرائد الحكومية جاءت مكاتبات من النصارى العرب يطالبون بالألا يتخذ انعطافهم نحو الحكومة الدستورية سبباً لعدم الاعتداد بهم كطائفة لا شأن لها، وينبهون إلى أن الدعوة إلى الوحدة أو الجامعة الطائفية مضرّة بكيان الدولة^(٢).

(١) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٧٦.

(٢) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني-توفيق برو-٢٤٥.